

الباب الثالث

الفتح الصليبي وصلاح الدين

- القدس وحملات الصليبيين - القدس وصلاح الدين -
- القدس وحفلة صلاح الدين - القدس في عهد المماليك .

القدس وحملات الصليبيين

احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ للميلاد . وقد حثهم على احتلالها البابا (أوربانوس الثاني) . وكان الراهب الفرنسي (بطرس الناسك) قد زار القدس قبل ذلك ببضع سنين ، ونقل إليه أخباراً جعلته يعتقد أنه لا بد من إنقاذ المسيحيين في الأرض المقدسة ، وإنقاذ ضريح السيد المسيح من يد المسلمين الذين وصفهم بالكفرة ، واعداء أولئك الذين يشتركون في الحملة الصليبية بأن يغفر لهم ذنوبهم ، ما تقدم منها وما تأخر .

ويقول المؤرخون الذين بحثوا وضع القدس في ذلك الحين إنه كان هنالك أسباب للحملة الصليبية غير تلك التي ذكرها البابا في رسالته . وإن المسيحيين^(١) كانوا يومئذ يعيشون مع المسلمين لإخوانهم في الوطنية واللغة في سلام وصفاء ، وإن الأسباب الحقيقية تتلخص في :

١ - حب التخلص من الثقافة والفلسفة العربية ؛ تلك الثقافة التي تناقض الإنجيل^(٢) ، وكانت منتشرة في ذلك الحين .

٢ - الحيلولة دون اصطدام الأمراء الإقطاعيين في أوروبا وتقاتلهم ؛ وشغلهم بمقاتلة أعدائهم المسلمين^(٣) .

(١) (مجلة الراعي الصالح) للأستاذ رثيف ميخائيل الساعاتي . ج ٧ ص ١٢٢ .
(٢) تاريخ العرب واتحاد الإسلام) للأستاذ سيد أمير على العضو في مجلس شورى الملك بإنجلترا ص ٢٧٦ و (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) للمقدس .

Description of Syria including Palestine by Guy Le Strange و

(٢) (المستشرقون) لنجيب العتيق ص ٤٢ - ٤٥ .

(٣) A Pilgrimage to Palestine by H. E. Fosstick B. 255

٣ - جعل الأرض المقدسة لاثينية وملاشاة الأرثوذكسية منها^(١) .
وقال آخرون إن الغاية الحقيقية لا هذه ولا تلك . وإنما هي غاية تجارية
بحت .

ومهما تكن الأسباب فإن الحملة الصليبية الأولى كانت مؤلفة من ثلاثمئة
ألف مقاتل^(٢) ، ينتمون إلى مختلف الشعوب والأقوام الأوربية من فرنسيين
وألمان ونمساويين ومجر وبولونيين وغير ذلك . واقترب هؤلاء في طريقهم إلى الأرض
المقدسة ألوان الفظائع والآثام . وذلك مما حدا بالأثم التي لاقوها في طريقهم
إلى مقاتلتهم . فقتل عدد كبير منهم . وعاد عدد آخر إلى بلاده قبل أن يصل
إلى هدفه .

ولما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس كان عددهم قد هبط إلى خمسين ألفاً .
حاصر الصليبيون القدس من جهاتها الأربع ، ولا سيما من ناحيتها الشمالية ،
وكان على رأسهم غودفري دو بويون أمير مقاطعة اللورين من أعمال فرنسا ،
والكونت روبرت أوف نورماندى أمير مقاطعة نورمانديا ، والكونت روبرت أوف
فلاندرس أمير مقاطعة فلاندرة ، والكونت تنكريد ريموند أمير مقاطعة طولوز ،
والكونت سان جيل ، وريكاردوس أمير سالارنوس ، وكليرمونت ، وجرارد ،
وبلويين ، وغيرهم . . .

بدأ الحصار في ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ م وكان في المدينة يومئذ (افتخار
الدولة) يديرها باسم الخليفة الفاطمي المستعلى بالله ، وكان عدد سكانها عشرين
ألفاً . ولم تكن البلاد في الحقيقة قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعف
الحكم السلجوقي بعد مقتل (نظام الملك) ١٠٩٢ والتمنافس القائم بين الرقباء

(١) (تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) لخليل إبراهيم قزاقيا ص ٧١ - ٧٢

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة) للمؤرخ الفرنسي مكسيموس موند ترجمة مكسيموس

مظلوم بطريرك أنطاكية والإسكندرية وأورشليم وسائر المشرق . ص ٢٩ .

الطامعين في العرش ، وكانت قوة الدفاع عن المدينة مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . ولم يترك أحد الفريقين وسيلة من وسائل التغلب على خصمه إلا لحأ إليها . وكثيراً ما كانوا يتقابلون في ساحات الوغى وجهاً إلى وجه فيقتتلون بالسلاح الأبيض .

ومضوا على تلك الحال فن كر وفر أربعين يوماً إلى أن نفذ ما لدى المسلمين من أعتدة ومؤن ، فانهارت مقاومتهم وتغلب الصليبيون عليهم . فدخلوا المدينة في تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة الموافق ١٥ تموز ١٠٩٩ م .

وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقى فيها بالموت . وشرعوا من فورهم في تنفيذ الحكم . فقتلوا سبعين ألفاً . ولم يجد المسلمين توسلهم ؛ لا ، ولا التجاؤهم إلى المسجد الأقصى . ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنجة ولا من المسلمين ، في استغظاع المنكرات التي اقترفها الصليبيون . تلك المنكرات التي أقل ما قيل فيها إنه يندى لها جبين الدهر ، وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذي زعموا أنهم إنما جاءوا لنصرته (١)

أرسل الصليبيون ، بعد انتهاءهم من هذه المحزنة البشرية ، إلى البابا رسالة أخبروه فيها بما جرى ؛ قائلين له : إن القدس فتحت على يدهم ، وإنهم قتلوا عدداً لا يحصى من المسلمين ، وإن خيولهم في إيوان سليمان كانت تخوض في بحر من دماء المسلمين حتى ركبها

ثم راحوا يديرون المدينة كما يشاءون . فاستولوا على معظم المباني والممتلكات

(١) (تاريخ الحروب المقدسة) للبطريك مكسيموس مفلوم ص ١٧٤ (تاريخ القدس)

لخليل طوطح وبولس شحادة ص ٢٨ .

(تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحادة غوري وفتولا غوري ص ٧٠

A pilgrimage to Palestine , by H. E. Fosstick. P. 256

(مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزي .

(النجوم الزاهرة) لابن تغري الأتابكي ج ٥ ص ١٤٨ .

التي كانت فيها ، سواء في ذلك ممتلكات المسلمين ، أو المسيحيين المنتمين إلى الكنيسة الشرقية . ولقد حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة وسموها Tempelum Domini واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم وكانوا يسمونه Palatium Tempelum Solomones فأنقصوا من حجمه كثيراً وقسموه إلى أقسام : فاتخذوا قسماً منه كنيسة وقسماً آخر مسكناً لفرسان الهيكل ، والباقي استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، واتخذوا السرايب التي تحت المسجد الحالى إسطبلاً لحيواناتهم . وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية ، جعلوا مقرها القدس ؛ وأقاموا عليهم أميراً هو غودفري دو بويون . فأخذوه إلى كنيسة القيامة وتوجوه ، ولما مات دفنوه في داخل الكنيسة .

وفي زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) ١١٠٠ - ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة . وكان لها في ميناء العقبة أسطول . وكانت تجبي الضرائب من القوافل التي تسير بين سوريا ومصر والحجاز . غير أن الأمن كان مفقوداً . ولا سيما على الطريق التي تصل أريحا بالقدس فقد كان يرايط في هذه الطريق عدد كبير من الأشخاص وإن أسماهم الراهب الروسي دانيال ، الذي زار القدس في عام ١١٠٦ م ، بقطاع الطرق ؛ إلا أنهم هم الذين نجوا من المذابح ، فراحوا يتكثرون ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين .

وتعاقب بعد ذلك ملوك الصليبيين على كرسى الحكم : فجاء بلدوين الثاني (١١١٨ م) فليسندة وفولك أنجو (١١٣١ م) ومليسنده وبلدوين الثالث (١١٤٤ م) وبلدوين الثالث وحده (١١٥٢ م) وآمورى الأول (١١٦٢ م) وابتدأت مملكة القدس على عهده بالاضمحلال . ثم جاء بلدوين الرابع (١١٧٣ م) وبلدوين الخامس (١١٨٥ م) وسبيل وغاى دولوسينيان (١١٨٦ م) وعلى عهد هذا الأخير احتل صلاح الدين بيت المقدس . وكان الشرق يومئذ

قد أفاق من غفلته ، وصحح أغلاطه ، فاتحد . وكان أمراء الصليبيين في القدس والكرك وفي عكا وكل مكان من الاختلاف على جانب عظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى لزماً علينا أن نذكر بوجه الإيجاز ما كانت عليه القدس تحت ظل المملكة اللاتينية فنقول :

كانت القدس والمدن الكائنة حولها ذات أهمية من النواحي السياسية والدينية والتجارية ، إذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التي تربط الشام بمصر . ولكنها لم تنعم بالراحة وهناء البال من ناحية الأمن لوقوعها بين أصقاع أهلة بالمسلمين ، وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين وإقلاقهم لهجاتهم المتكررة . وكذلك قل عن الأخلاق فقد انحطت يومئذ إلى درجة لا تطاق (١) . والضرائب والرسوم التي فرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة . وما كان هناك نظام مالي ولا طرق منظمة لحماية تلك الضرائب والرسوم .

وأما الحكم فقد كان يومئذ قائماً على أساس (الإقطاع) . وكان أمراء الإقطاع من الاستقلال بدرجة أنهم ما كانوا يقيمون للملك الجالس على العرش في القدس وزناً . لا ، بل كان بعض هؤلاء الأمراء يحارب البعض الآخر . ونسوا الغاية التي جاءوا هذه البلاد وفتحوا القدس من أجلها .

وتكونت في القدس فرقتان : فرقة أسموها Templiers أي فرسان الهيكل وكانت عند المسلمين تعرف بـ (الداوية) . وأخرى Hospitaliers أي فرسان المستشفى وكان المسلمون يلقبونها بـ (الاسبتارية) . أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم لمكافحة المسلمين . وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم في بادئ الأمر منصرفاً إلى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين .

ثم تحولت الفرقتان إلى هيئة حربية ، واتخذتا المسجد الأقصى مقراً لأعمالهما ، وجعلتاها مستودعاً لأسلحتهما .

(١) (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ الكناني . ص ٩٩ .

ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، إذ ظل سكانها عرباً ، ويتكلمون اللغة العربية .

ومن آثار الصليبيين في القدس : — كنيسة القديسة حنة الكاتنة بين باب الأسباط وباب حطة ، وهي التي يسمونها في يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية . وكنيسة القديسة مريم الكبرى التي بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص في الدباغة ، وكنيسة القديسة مريم اللاتينية على مقربة من أختها التي سبق ذكرها عند مدخل سوق الدباغة . وكنيسة الداوية قبلي كنيسة القيامة . ويعتقد المسيحيون أنها كانت في المكان الذي يقوم عليه الآن المسجد العمري . وكانت كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد ، وبنوا القبة المعروفة الآن بكنيسة (نصف الدنيا) .

ومن آثارهم أيضاً المستشفى المعروف بالمارستان فإن هذا المستشفى الذي بنى في زمن الفاطميين ، وسع على عهد الصليبيين توسعاً كبيراً . ومنها أيضاً التزل الذي أقاموه إلى جانب هذا المستشفى ، ومن بقاياها السوق المعروف بسوق البزار ، وفيها تباع الخضر في يومنا هذا .

القدس وصلاح الدين

(١١٨٧ م)

لم ينقطع المسلمون عن مناوأة الصليبيين منذ احتل هؤلاء القدس وأخذوها من الأفضل عام ١٠٩٩ للميلاد . وكان أكثر المسلمين اهتماماً بها الأمير نور الدين . إذ ما كاد هذا يملك الشام (١١٥٤ م) حتى راح يبيت الأرصاد ،

ويرسل الفدائيين إلى بيت المقدس ، ليجوسوا خلال الديار ، ويأتوه بالأخبار ،
 لمعرفة كيف ومن أين يستطيع مهاجمتها وردها إلى حظيرة المسلمين . ولقد
 عثر المنقبون^(١) على مغارة في أسفل جبل الزيتون ، عند مفترق وادي الجوز وقدرون
 حفرت على جدرانها بعض الكلمات والأسماء العربية . ولدى دراستها علموا أنها
 من آثار منتصف القرن السادس للهجرة . وأن هذه الأسماء التي قال بعض المستشرقين
 عنها إنها لطائفة من الدراويش والمتصوفين وقال آخرون إنها لبعض الخوارج وقطاع
 الطرق الذين كانوا يكمنون في المغاور والكهوف ليتصيدوا المسافرين ، إنما هي
 في الحقيقة أبطال كان يبعث بهم نور الدين ليأتوا إليه بالخبر اليقين . ولكن
 الأجل عاجله فمات قبل أن يدرك بغيته ، فقام بتلك المهمة ربيبه وخليفته
 صلاح الدين .

ما كاد ينتهي صلاح الدين من معركة حطين^(٢) ، تلك المعركة التي
 انتصر فيها على الصليبيين (في ٢٥ ربيع الثاني ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) ، حتى
 راح يفكر في الاستيلاء على بيت المقدس . وقد سار إليها من فوره ، يتبعه
 جيش مزيج من العرب والترك والكرد . وعند ما وصل إليها . حاصرها أولاً من
 الناحية الغربية . ولكنه سرعان ما رأى أن تلك الناحية لا تصلح للهجوم ، فنقل
 جيشه إلى الناحية الشمالية وعسكر في البطحاء التي تقوم عليها الأحياء المعروفة
 في يومنا هذا بالمسكوبية وباب العمود وباب الساهرة . وقضى هناك عشرين
 يوماً قبل أن يتمكن من فتح المدينة ، قضاه في تركيب آلات الحصار ، وفي
 تهئية وسائل القتال . وكانت قوة الدفاع في داخل المدينة مؤلفة يومئذ من ستين

(١) منهم الأستاذ مكاليستر . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عادل جبر في العدد ١٤ - ٩٩٣
 من مجلة (صوت الشعب) .

(٢) (كتاب الروضتين في أخبار الدولتين) لأبي شامة ص ٢٦٠ .

ألف مقاتل^(١) ، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع .

وبعد أن أتم ترتيباته ، وأصبح قادراً على اقتحام الأسوار ؛ أئذ السكّان طالباً إليهم الاستسلام ولما أبوا راح يضربهم بالمنجنيق . فنشب قتال عنيف ؛ أبلى فيه الفريقان بلاء حسناً . وقتل منهما خلق كثير . وتمكن المسلمون من خرق جانب من السور من ناحيته الشرقية . فيئس الصليبيون . وأرسلوا رسلهم عارضين الاستسلام . ولقد تردد صلاح الدين ، في بادئ الأمر . ولكنه عاد فرضى . ولا سيما عند ما قال له الرسول باليان^(٢) إنه إذا ما أصر على دخول المدينة عنوة فإن الصليبيين معتمرون أن يقتلوا المسلمين من الأسرى الذين كانوا في المدينة ، وعددهم خمسة آلاف . أضف إلى ذلك أنهم (أى الصليبيين) سيقتلون نساءهم لئلا يقعن في أيدي المسلمين وسوف يهدمون الصخرة والأقصى .

وبعد أن استشار صلاح الدين قواده منح الصليبيين ما يطلبون . فأتاح لهم مغادرة المدينة لقاء الجزية ، على أن تدفع هذه خلال أربعين يوماً . وأقام على أبواب المدينة أمناً ليجبوا الجزية . فدفعها الصليبيون عشرة دنائير شامية عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة ، وديناراً واحداً عن كل طفل ؛ وغادروا المدينة دون أن يصابوا بأذى . وعفا عن كثيرين مفتدياً هو وحده عشرة آلاف شخص ، وأخوه سيف الدين الملقب بالملك العادل سبعة آلاف شخص

وهكذا تم لصلاح الدين فتح بيت المقدس ، وتم ذلك في يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ - ٢ أكتوبر ١١٨٧ م .

خشى الصليبيون أن يقابلهم صلاح الدين بمثل ما فعلوه يوم احتلوا المدينة ؛ إذ قتلوا يومئذ - كما سبق وقلنا - تسعين ألفاً من المسلمين . ولكن صلاح الدين أظهر من التسامح والعفو ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير .

(١) (النوادر السلطانية في أحاسن اليوسفة) للقاضي بهاء الدين أبي المحاسن . وابن الجوزي

ج ٨ ص ٢٥٤

(٢) (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٠

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين في شوارع المدينة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام ؛ فلم يقع في المدينة حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التي تلازم الفتح عادة . وراحت الأعلام الإسلامية تخفق على الأسوار . وبعد أن وزع الهبات والعطايا على قواد جيشه وأمرائه ، وانتهى من قبول تهاني المهثين ، شرع في تنظيم الشؤون . فذهب قبل كل شيء إلى مسجدى الصخرة والأقصى ، وأزال ما بهما من آثار نصرانية . ثم عممرهما تعميراً يتناسب والغاية التي أنشئتا من أجلها . ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذي كان في حلب ، وكان قد صنع قبل ذلك بعشر سنين وبأمر من نور الدين ليؤتى به إلى القدس عند فتحها .

وأمر صلاح الدين بإغلاق كنيسة القيامة ريثما ينتهى القتال ، ولما انتهى هذا أمر بفتحها . وفتح للمسيحيين مجال التعبد فيها بحرية .

ومن الأعمال التي قام بها أنه أتى بعدد من القبائل العربية كبنى حارث وبنى مرة وبنى سعد وبنى زيد والحرامنة ، فأقطعها بعض أجزاء المدينة ، ليستوطنوها . إنه هو الذي رتب الأعياد والمواسم المعروفة في بلادنا كموسم النبي موسى في القدس ، والمواسم الأخرى في المدن الفلسطينية الأخرى . وإن قال آخرون إن هذه المواسم من وضع الملك الظاهر بيبرس . والوقت الذي اختير لإقامة هذه المواسم هو الوقت نفسه المخصص لعيد الفصح . ذلك العيد الذي يفد فيه إلى القدس عدد كبير من المسيحيين ، ولا سيما الأوروبيين ، كزائرين ، فخشي المسلمون أن ينقلب الزائرون إلى جنود في نهاية الأمر فيحتلوا المدينة . غادر صلاح الدين القدس لحمص بقين من شعبان . ثم عاد فزارها في السنة التالية (٥٨٤ هـ - ١١٨٨ م) . وقد نزل في هذه المرة في دار القسوس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وانتعشت الحركة التجارية في المدينة إثر الفتح الصلاحي ؛ فكثر المواد التي كانت تصدرها إلى الخارج ،

ومنها الجبن والقطين والزبيب والزيتون والتفاح وقضم قريش والمرايا وقذور القناديل والإبر والألبان .

ومن آثار صلاح الدين في القدس (البيارستان)^(١) ؛ أنشأه في البقعة التي تقوم عليها سوق البيزار وكنيسة الألمان في الدباغة وشطر من سوق أفتيموس ، وفي قول إن هذا المستشفى كان هناك في زمن الصليبيين وإنه هو الذي أسسه الفاطميون . وإن صلاح الدين وسعه فجعله من أعظم المستشفيات في الإسلام . وكان يداوى فيه الجرحى والمرضى من الجنود والأهلين من غير أجر ولا عوض .

و (الخانقاه الصلاحية) أنشأها في جانب من منزل البطريق الملاحق لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، ذلك المنزل الذي قلنا إنه نزل فيه عندما زار القدس للمرة الثانية : وقد اتخذها مسجداً ورباطاً للصالحاء الصوفيين .

واهتم صلاح الدين بسور المدينة ؛ فعمره وجدد ما تهدم منه ، وأنشأ عدداً من الأبراج الحربية في الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل ، وحفر حول السور الخنادق لثلاثيسل على الصليبيين الدنو من المدينة ؛ وكثيراً ما رآه الناس وهو يشارك العمال في نقل الحجارة وأعمال البناء . وكذلك قل عن أولاده وأمرائه وعن أخيه العادل .

ومن آثاره (قبة يوسف) القائمة على الطرف القبلي من فناء الصخرة . و (جامع الجبل) الكائن على جبل الطور ، إلى الشرق من المدينة . و (مقبرة الساهرة) وكانت على عهده تدعى مقبرة المجاهدين . ومن آثاره : (المدرسة الخنثنية) بجوار المسجد الأقصى من القبلة ، خلف المنبر وقفها عام ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م) .

(١) (تاريخ البيارستانات في الإسلام) للدكتور أحمد عيسى ص ٢٣٠ و (عقد الجمان)

و (المدرسة الصلاحية) على بعد بضعة أمتار من السور الشرقى عند باب الأسباط . كانت فيما مضى مدرسة للروم . بنيت فى المكان الذى كان فيه بيت حنة والدة مريم البتول وبعلمها يواكيم . وكان فيها على عهد الصليبيين كنيسة يسمونها كنيسة القديسة حنة ؛ فجعلها صلاح الدين مدرسة ، ووقفها للفقهاء الشافعية ، ورباطاً للمتصوفين . وكان ذلك بتاريخ ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م . وطار صيت هذه المدرسة فى ذلك العهد وفى العهود الإسلامية التى تلتها . وبقيت فى حوزة المسلمين حتى القرن التاسع عشر للميلاد ، فتنازل عنها الأتراك للفرنسيين بعد حرب القرم . لأنهم (أى الفرنسيين) وقفوا إلى جانب الأتراك وخصموا الروس فى الحرب المذكورة . وأعطاهم الفرنسيون إلى الآباء البيض ، فاتخذوها مدرسة إكليريكية . وبقيت كذلك حتى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) . إذ جعلها الأتراك كلية باسم (الصلاحية) . ولما سقطت القدس فى يد الإنكليز أعادها هؤلاء إلى الآباء البيض . فأعادوها مدرسة وفيها متحف وكنيسة .

و (المدرسة الميمونية) على بعد مئتين متر من السور الشمالى وعلى مقربة من باب الساهرة . وقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القصرى خازن الملك صلاح الدين (٥٩٣ هـ - ١١٩٦ م) . واندثرت مع الزمن ، فاتخذ جانب منها فاخورة والجانب الآخر مزبلة ، وظلت كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر . فعمرها الأتراك (١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م) واتخذوها مدرسة أسموها (قدس شريف مكتب أعداديس) . وسميت خطأ (المأمونية) نسبة للخليفة العباسى المأمون . ولقد تعلم فيها الكثيرون من أبناء بيت المقدس ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب .

وقلبها الإنجليز ، عند احتلالهم المدينة (١٩١٧) إلى مدرسة للبنات . هذا ما تيسر نقله عن الآثار التى تمت فى القدس على عهد صلاح الدين .

ولما مات صلاح الدين (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) ودفن في دمشق ، بكاه الناس . ذلك لأنه حررهم من ربة الاستعمار والذل ، وقادهم الى المجد ، وراحت كلمة الإسلام هي العليا في هذه الديار . وظلت كذلك زهاء سبعة قرون .

القدس وحفدة صلاح الدين

(١١٩٣ م)

انقسمت إمبراطورية صلاح الدين ، بعد وفاته ، إلى عدة ممالك ؛ فصارت الشام وفلسطين لابنه على الملقب بالملك الأفضل ، ومصر لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز ، وحلب لابنه غازي الملقب بالملك الظاهر ، والكرك وقسم من الجزيرة وما بين النهرين لأخيه الملك العادل ، وإيمن لأخيه الثاني طغتكين بن أيوب ، وحمص لابن عمه أسد الدين شركوه .

وكانت القدس مضافة للأفضل ؛ وهو الذي أنشأ فيها (المدرسة الأفضلية) أنشأها بحارة المغاربة ، وكانت على عهده تعرف بالقبة ، ووقف معها حارة المغاربة . وكان ذلك في سنة ٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م . ومن آثاره (المسجد العمري) الكائن إلى الجنوب من ساحة كنيسة القيامة .

تنازل الملك الأفضل بعد قليل عن القدس^(١) لأخيه الملك العزيز ، مفصلاً ضمها إلى مصر . ذلك لأنها ، على قول وزيره ابن الأثير ، كانت في حاجة إلى المال والرجال لدفع عادية الفرنج عنها . فتقبلها العزيز ، وأرسل إلى متوليها الأمير جرديك بن عبد الله النوري عشرة آلاف دينار لينفقها في عسكر القدس

(١) (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزي ج ١ ص ١١٥

ثم أرسل إليها جنداً آخرين ، خشية أن يعود الفرنج لاحتلالها ، فخطب له فيها .
 ثم عاد الأخوان ، فتنافرا (١١٩٤ م) . كل منهما يريد ضمها إلى رقعته :
 الملك الأفضل في الشام ، والملك العزيز في مصر . وراح عمهما الملك العادل
 يتدخل بينهما ، فيزيد الناز ضراماً ، وأيد العزيز على الأفضل ، فتمكن العزيز
 من نشر كلمته في مصر والشام معاً ، ونزل القدس في رمضان ٥٩٢ هـ - ١١٩٥ م ،
 فأقال نائبها أبا الهيجاء السمين ، وأقام مكانه الأمير شمس الدين سنقر الكبير .
 وألغيت على عهده بعض الضرائب والرسوم ومنع استخدام أهل الذمة في
 وظائف الدولة .

ولما توفي الملك العزيز (١١٩٨ م) تولى الملك ولده محمد ، ولقب بالسلطان
 الملك المنصور ناصر الدين ، ولما كان هذا صغيراً ، أقيم الأمير بهاء الدين
 قراقوش الأسدي أتابكاً (أي وصياً) عليه . وحدثت في القدس على عهده
 مؤامرة اشترك فيها عدد كبير من الأمراء ، ومنهم نائب القدس الأمير صارم الدين
 صالح . فكاتب هؤلاء الملك العادل ، وكان يومئذ في دمشق ، ليأتي
 ويدير القدس . إلا أن الملك الأفضل الذي اطلع على هذه المؤامرة أحبطها ،
 وسار إلى مصر ، فاستولى على أمور الدولة . وعادت البلاد ، فانقسمت إلى
 قسمين : قسم يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الأفضل في مصر ، وقسم
 يؤيد الملك العادل في الشام . وفي هذه الغمرة من الحروب الأهلية راحت القدس
 تتلظى على جمر الجوع والغلاء ، وظلت الأزمة فيها قائمة إلى أن تغلب العادل
 على ابن أخيه الأفضل ، فدخل مصر ، وأصبح الأمر الناهي فيها وفي الشام
 معاً . ولقب بالسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . وعلى عهده
 بنيت المدرسة الجراحية الكائنة على طريق نابلس بالحى المعروف بالشيخ جراح .
 وقفها الأمير حسام الدين حسين شرف الدين يحيى الجراحى (٥٩٨ هـ - ١٢٠١ م)
 ومن آثار الملك العادل في القدس سقاية الحرم والمطهرة ١٢٠٢ م .

ولما مات ترك في خزانته سبعمائة ألف دينار . استولى عليها ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى . وكانت القدس من أعماله . وكان يديرها بالنيابة عنه الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمي وكان يلقب بالمتولى (١) . ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكاري .

ولقد اقتنى أهل القدس أثر مليكهم المعظم شرف الدين عيسى ، فراحوا يلبسون على عهده الكلوة الصفراء بلا شاش ، وكانوا يرتدون ذوائب شعورهم من تحتها . وقيل إن الملك المعظم عيسى كان يحب القدس وكثيراً ما كان يزورها متفقداً أحوالها . وله فيها آثار جمة ، نذكر منها :

(المدرسة المعظمية) التي بناها في ٦١٠ هـ - ١٢١٣ م . وإنا نرى بقاياها بين باب حطة والباب العثم شمالي الطريق المؤدية إلى باب الأسباط .

و (المدرسة البدرية) في الحى المعروف بحى الواد ، وعلى مقربة من ضريح القرمي . بناها في السنة ذاتها . وقفها بدر الدين محمد بن أبي القاسم الهكاري أحد أمراء الملك المعظم عيسى (٦١٠ هـ - ١٢١٣ م) .

و (سبيل شعلان) بناه بعد ذلك بثلاث سنين (١٢١٦ م) . والرواق الشمالي الذي نراه في مدخل المسجد الأقصى ، والمؤلف من سبعة عقود كبيرة . وكذلك الأبواب الخشبية التي نجدتها عند مدخل الأقصى في الشمال . فقد أنشأ ذلك كله عام ١٢١٧ م .

ولكن هذا الملك الذى أحب القدس وعمرها عاد فأمر بتخريبها سنة ١٢١٩ م خشية أن يستولى الفرنج عليها . وذلك قد حدا بالسكان لدمه فمات مهزوماً سنة (١٢٢٦ م) .

تولى الملك بعد المعظم عيسى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود . ولما

كان هذا صغيراً وعاجزاً عن تدبير شؤون الملك ، هاجمه عمه الملك الكامل ؛ فأخذ منه معظم البلاد ، ومنها القدس (١٢٢٧ م) . وعلى عهده عقد المسلمون مع الصليبيين (١٢٢٨ م) هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعون يوماً . وقد نصت هذه الهدنة التي وقع عليها كل من الملك الكامل والإمبراطور فريدرىك على أن يأخذ الفرنج القدس من المسلمين فيبقوها على ما هي عليه من خراب ، خلا الحرم القدسي وما فيه من مساجد كالصخرة والأقصى ، فإنه يبقى بيد المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة . وتكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج . وأما القرى الواقعة بين بافا وعكا وبين اللد والقدس فلأنها تعطى للفرنج .

فأنكر المسلمون على الملك الكامل عمله هذا ، وراحوا يشتمونه في جميع الأقطار . وحاصر الكامل بعدئذ دمشق ، فاستولى عليها وتحالف مع ابن أخيه الملك الناصر فأعطاه بدلا من دمشق الكرك والبلقاء و نابلس والقدس . وانفرد هو بالحكم في مصر وباقي بلاد الشام .

ولما مات الكامل تولى الملك من بعده ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٨ م) . واستولى هذا على معظم البلاد التي كانت بيد الناصر ، ومنها أعمال القدس . ولكن الناصر عاد فتغلب عليه واستردها منه .

وفيما كان ملوك بني أيوب يقتتلون ، كان الفرنج يستعدون لقتالهم ؛ وقد حصنوا القدس تحصيناً تاماً ، ولا سيما السور الذي خربه الملك المعظم عيسى ، فقد عمروه . ولما بلغ الملك الناصر داود عملهم هذا ، سار إليهم . وبعد أن حاصر القدس واحداً وعشرين يوماً أخذها منهم عنوة (١٢٣٩ م) وأفرج بعدئذ عن الملك الصالح نجم الدين فاجتمعوا معاً في القدس وتحالفا : على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام للناصر ؛ وأن يعطى الصالح للناصر مئتي ألف دينار .

ولكنهما عاددا فاختلفا ، فاستغل الفرنج خلافتهم واستولوا على القدس .
 وراح أهل مصر والشام يقتتلون . واستنجد الأولون بالحوارزمية . فجاء هؤلاء
 في عشرة آلاف فارس ، وراحوا يقاتلون أهل الشام والفرنج ، واحتلوا القدس ،
 وأعملوا سيوفهم في رقاب من كان فيها من النصارى ، وأتوا فيها وفي غيرها من
 البلدان بأعمال تقشعر لها الأبدان . وقتل من الفرنج ومن أهل الشام في هذه
 المعارك ثلاثون ألفاً أو يزيد . وعادت القدس فصارت من أملاك الملك الصالح
 نجم الدين (١٢٤٥) ونزلها الملك بعد ذلك بقليل (١٢٤٦ م) فتصدق على
 فقراءها بألفي دينار وأمر بعمارة السور .

قام الصليبيون بعد ذلك بحملة جديدة لتخليص القدس من يد المسلمين -
 وهي التي أسموها بالحملة السابعة (١٢٤٨ م) . وتبادل زعيم هذه الحملة لويس
 التاسع والملك الصالح نجم الدين - قبل أن يشرعا في القتال - رسائل التهديد
 والإنذار . ثم التقيا في ميادين القتال . ودارت بين الفريقين معارك دامية . وكان
 أن مات الملك الصالح (١٢٤٩ م) قبل أن تنتهى تلك المعارك إلى نتيجة
 حاسمة .

فتولى الملك بعده ولده الملك المعظم غياث الدين تورانشاه .
 ولما لم يحسن هذا إدارة الملك ، نفرت قلوب المماليك البحرية منه ، فتآمروا
 عليه وقتلوه (١٢٥٠ م) . وبمقتله انقضت دولة بني أيوب .

القدس في عهد المماليك

(١٢٥٠)

اجتمع أمراء المماليك ، إثر مقتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه (١٢٥٠ م) وأقاموا عليهم (شجرة الدر) . فأصبحت هذه سيدة البلاد . كما أقاموا الأمير (عز الدين أيبك) التركمانى على رأس جيشها . ثم اقترنت هذه بالأمير عز الدين ، وتنازلت له عن الملك ، فأصبح ملكاً ، وأسس العائلة المملوكية الأولى ، فلقب بالملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى . وكانت القدس من أعماله .

وقتل المعز بعد ذلك بسبع سنين . فتولى الملك ابنه الملك المنصور على (١٢٥٧ م) . وكان هذا صغيراً ، وضعيفاً ، فاستغل أهل الشام ضعفه . واستولوا على القدس . وخطبوا فيها للملك المغيـث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيوب . ثم عاد المصريون ، فتغلبوا على خصومهم . واحتلوا القدس . وخلصوا ملكهم . وأقاموا مكانه الأمير سيف الدين قُطز المعزى ولقبوه بالملك المظفر (١٢٥٩ م) .

ولما قتل قُطز أقام الأمراء بدلا منه الشخص الذى قتله وهو الأمير ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ م) . ولقب هذا بالملك الظاهر بيبرس .

زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرتين : مرة فى عام ١٢٦٢ م وأخرى فى عام ١٢٦٥ م . ومن المنشآت التى تمت على عهده :

(دار الحديث) بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة . وقفها

الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين محمد بن أنى القاسم الحكاوى (٦٦٦هـ - ١٢٦٧م) .

(المدرسة الأباصيرية) تجاه الرباط المنصوري بجوار باب الناظر . وقفها الأمير علاء الدين آيدوغدى (٦٦٦هـ - ١٢٦٧م) وهو مدفون فيها . ولقد جدد الملك الظاهر بيبرس ما كان قد تهدم من مسجد الصخرة (١) . كما جدد قبة السلسلة وزخرفها . وأنشأ خاناً . ووقف بعض القرى لينفق ريعها على مصالح المسجد في كل عام .

وإن النصوص التي على الرخام في مسجد الصخرة من الظاهر من آثار الملك الظاهر (١٢٧٠م) . وهو الذي بنى على قبر موسى عليه السلام عند الكتيب الأحمر قبلى أربحا قبة ومسجداً (١٢٦٩م) (٢) .

ولما مات الملك الظاهر بيبرس تولى الملك ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد (١٢٧٧م) . ثم ابنه الثانى الملك العادل بدر الدين سلامش (١٢٧٩م) . ثم الملك المنصور سيف الدين قلاون (١٢٨٠م) . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت عديدة ، نذكر منها :

(رباط قلاون) ويسمى أيضاً الرباط المنصوري . أنشأه عام ١٢٨٢م . ووقفه على الفقراء من زوار القدس . إنه واقع قبلى الطريق المؤدية إلى الحرم من الغرب عند باب الناظر .

(المسجد القلندرى) واقع فى طريق دير اللاتين . أنشأه عام ١٢٨٧م . (الكبيكية) ويسمىها الناس القبقية لأنها قبة جميلة واقعة فى تربة ماملا وإلى الشمال الشرقى من البركة فيها ضريح الأمير علاء الدين آيدوغدى بن عبد الله الكبيكى (١٢٨٩م) .

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) لمجد الدين ص ٣٩٤ وص ٦٠٥ .

ومن الحوادث الهامة التي جرت في عهده أنه أصدر مرسوماً يقضي بالآ
يستخدم في خدمات الدولة أحد من أهل الذمة - اليهود والنصارى - فصرفوا
عنها (١٢٨٥ م) .

وعقدت بين السلطان والفرنج في عكا هدنة (١٢٨٣ م) . مدتها عشر
سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، على أن يكون للسلطان جميع
الديار المصرية والحجازية ومعظم بلاد الشام والأردن وفلسطين بما في ذلك
القدس (١) .

وبعد وفاته تولى الملك ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل
(١٢٩٠ م) . ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (١٢٩٣ م) .
فالسلطان الملك العادل زين الدين كتبغا (١٢٩٤ م) . فالسلطان الملك المنصور
حسام الدين لاجين (١٢٩٦ م) . فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون
للمرة الثانية (١٢٩٨ م) فالسلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس (١٣٠٨ م)
فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثالثة (١٣٠٩ م) . ودامت
سلطنته في هذه المرة حتى سنة ١٣٤١ م .

وقامت في القدس على عهد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور
سيف الدين قلاون المنشآت التالية (٢) :

(رباط الكرد) أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد . أنشأه المقر السيفي
كرد سنة (٦٩٣ هـ - ١٢٩٣ م) .

(المدرسة النوادرية) في مدخل الباب المعروف بباب النوادرية .

(الباب العثماني) من أبواب الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين أبو موسى

(١) (تاريخ الدول والملوك) ج ١٤ ص ١٨٨ . و (دولة ابن قلاون في مصر)

للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٣ .

(٢) (الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل) للقاضي مجير الدين .

سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحى النجمى سنة ٦٩٥ هـ - ١٢٩٥ م .

(المدرسة السلامية) بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية وإلى الشمال من المدرسة الدوادارية . وقفها الخواجا محمد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامى سنة ٧٠٠ هـ - ١٣٠٠ م .

(المدرسة الوجيهية) بخط درج المولى عند باب الغوانمة . وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد النجا الحنبلى المتوفى سنة ٧٠١ هـ - ١٣٠١ م . (المدرسة الموصلية) بباب شرف الأنبياء . وقفها الخواجا فخر الدين الموصلى . (المدرسة الجالقية) على مثنى متر من الحرم إلى الغرب عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد . أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجالحق الصالحى سنة ٧٠٧ هـ - ١٣٠٧ م .

(المدرسة الجاولية) قريبة من درج الغوانمة عند زاوية الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولى نائب غزة والقدس فى ٧١٥ هـ - ١٣٠٥ م . جعلها مدرسة . واتخذها شاهين الذباح داراً للنيابة سنة ٨٠٠ هـ - ١٤٠٠ م . كانت على عهد المكابيين قلعة . ووسعها هيرودس فأضاف إليها برجاً أسماه (برج أنطونيا) . واتخذت فيما بعد مقراً لولاية الرومان . وفيها أقام الوالى الرومانى بيلاطس الذى حاكم المسيح ، وهناك حكم عليه بالصلب . وفى عهد المماليك صارت مدرسة ، وداراً للنيابة كما قدمنا . وقد اتخذها الأتراك فى نهاية القرن السادس عشر قشلاقاً وداراً للحكم . ووضع المجلس الإسلامى يده عليها فى ١٩٢٢ م كجزء من أملاكه الموقوفة . واتخذها مدرسة . وعرفت بعد ذلك بالروضة (روضة المعارف الوطنية) . وفى أثناء الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ - ١٩٣٨) اتخذها الإنجليز داراً للشرطة . وفى الحرب الفلسطينية (١٩٤٧ - ١٩٤٩) اتخذت مقراً لفرق المناضلين المنتمين إلى الجهاد المقدس ، ثم مقراً للكتيبة السادسة من كتائب الجيش العربى .

(المدرسة الكريمة) بباب حطة . وقفها الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله بن مكائس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية وكان ذلك في ٧١٨ هـ - ١٣١٩ م . ذكرها ابن بطوطة في رحلته ، وقال إن واقفها كريم الدين كان قبطياً فأسلم .

(المدرسة التنكزية) بباب السلسلة . أنشأها الأكبر تنكز الملكى الناصرى في ٧٢٩ هـ - ١٣٢٩ م . كانت في عهد المماليك مدرسة عظيمة وداراً للحديث . سكنها السلطان فرج بن برقوق . وفي عهد قايتباي اتخذت مقراً للقضاء والحكام . وفي العهد التركى صارت محكمة شرعية . وبقيت كذلك في أوائل عهد الاحتلال الإنجليزى ثم سكنها رئيس المجلس الإسلامى الأعلى .

(المدرسة الأمينية) إلى الغرب من باب شرف الأنبياء . أنشأها الصاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م . ويقع فيها الآن جماعة من دار الإمام .

(الخانقاه القخرية) مجاورة لجامع المغاربة على بعد مئتين متر من المسجد الأقصى إلى الغرب . وقفها القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله في سنة ٧٣٢ هـ - ١٣٣١ م . يسكنها الآن فريق من آل ابن السعود .

(المدرسة الملكية) شمالي الحرم بين المدرسة الفارسية من الشرق والمدرسة الأسعدية من الغرب ، ومن أسمائها (مدرسة الجوكندار) . عمرها الحاج ملك الجوكندار سنة ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م .

ومنها الرواق الممتد من باب الغوانمة إلى باب الناظر (١٣٠٧ م) . فباب القطانين . الكائن في وسط هذه السوق . و (سوق القطانين) نفسها وكانوا يسمونها (خان تنكز) فقد أنشئ عام ١٣٣٦ م . ومن المنشآت التي تمت على عهده الجامع الكائن بداخل القلعة قريباً من زاويتها القبليّة الغربية ١٣١٠ م وهو الذي رُم القلعة وحصنها ١٣٢٠ م .

وعلى عهده فتح بالمسجد الأقصى الشباكان اللذان تراهما إلى يمين المحراب الكبير ويساره . وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ، وعمرت القناطر التي على الدرجتين الشماليين بصحن الصخرة ، مقابل باب حطة وباب شرف الأنبياء . وعمّر (السور القبلي) عند محراب داود .

وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) . ووصل الماء إلى المسجد الأقصى ١٣٢٨ م . وأنشئ الحوض الذي يسميه الناس في يومنا هذا : (الكأس) . إنه مصنوع من الرخام وكائن في الساحة الواسعة بين مسجدى الصخرة والأقصى .

ويظهر أن القدس على الرغم من قدسيتها ومن هذه المنشآت التي قامت فيها كانت يومئذ تعتبر منى للذين يحل عليهم غضب السلطان . فقد حدثنا المؤرخون عن أشخاص كثيرين ، بعضهم من طبقة الأمراء ، نفوا إلى القدس ، وأمروا بالإقامة الجبرية فيها . ولقد زارها الملك نفسه مراراً ، وتنفق أحوالها .

وبعد وفاته تسلطن ثمانية من أولاده (١٣٤١ - ١٣٦١ م) هم : الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ، والملك الصالح إسماعيل ، والملك الكامل شعبان ، والملك المظفر حاجي ، والملك الناصر حسن ، والملك الصالح صلاح الدين . فلم يأت واحد من هؤلاء بأى عمل يذكر في القدس . وما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقوم أخوه عليه ، أو أحد أقاربه ، فيقتله ، أو يقيله ، أو ينفيه .

وكذلك قل عن الأيام التي انقضت على عهد المماليك الذين تسلطوا من بعدهم (١٣٦١ - ١٣٨١ م) . وهم الملك المنصور محمد بن حاجي ، والملك الأشرف شعبان بن حسن ، والملك الصالح حاجي بن شعبان . وهو آخر من حكم هذه البلاد من دولة المماليك الأولى ويسمونها البحرية أو التركمانية . ومن المنشآت التي وصلت إلينا أخبارها والتي أنشئت في أواخر هذه الدولة :

(المدرسة الفارسية) بين الأمينية من الشرق والملكية من الغرب . وقفها الأمير فارس الدين ألبكى بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطان في سنة ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م .

(المدرسة الأرغونية) عند الباب الحديد من أبواب الحرم في الناحية الغربية . شرع في إنشائها الأمير أرغون الكامل سنة ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م . وأكملها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٧٥٩ هـ - ١٣٥٨ م . يسكن جانباً منها جماعة من آل العفيفي . وفي الجانب الآخر دفن المغفور له الملك حسين بن علي الذي أوقد نار الثورة ضد الأتراك سنة ١٣٣٤ هـ - ١٩١٥ م .

(المدرسة التثتمرية) بباب الناظر على مقربة من الحسينية . وقفها الأمير تشمر السيفي من أمراء الملك الناصر حسن بن محمد قلاوون سنة ٧٥٩ هـ - ١٣٥٧ م .

(المدرسة الطثتمرية) في طريق باب السلسلة . بناها الأمير طثتمر العلائي سنة ٧٨٤ هـ - ١٣٨٢ م .

(المدرسة الخاتونية) بباب الحديد غربى الحرم وإلى الشمال من باب القطانين . وقفها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية في ٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م . وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢ هـ - ١٣٨٠ م . ودفن في جانب منها الأمير محمد علي من أمراء الهند المسلمين ١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م .

(المدرسة البلدية) إلى الشمال من باب السكينة . وكانت في ما مضى تعرف بمدرسة الأمير منكلي نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلي بن الأحدي سنة ٧٨٢ هـ - ١٣٨٠ م .

(المدرسة الأسعدية) على مقربة من الجاولية شمالى الحرم . بنيت حوالى سنة ٧٦٠ هـ - ١٣٥٨ م . وقفها الخواجه مجد الدين عبد الغنى بن سيف الدين

أبي بكر بن يوسف الأسعردى سنة ٧٧٠ هـ - ١٣٦٨ م . جدد عمارتها المجلس الإسلامى الأعلى فى أوائل القرن العشرين ، واتخذها داراً للكتب باسم (المسجد الأقصى) .

(دار القرآن السلامية) تجاه دار الحديث على طريق باب السلسلة . وقفها سراج الدين عمر بن أبى بكر أبى القاسم السلامى ، سنة ٧٦١ هـ - ١٣٥٩ م . (المدرسة المنجكية) إلى الشمال من باب الناظر . أنشأها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م . اتخذها المجلس الإسلامى خلال الربع الأول من القرن العشرين مقراً لأعماله . وقد ضم إليها جزءاً من الدار المجاورة والمعروفة بالحسنية .

(المدرسة المحدثية) على مقربة من الوجيية بباب الغوانمة . وقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمى الأردبلى سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م . ألحق بجانب منها بكلية روضة المعارف الوطنية . ويقع فى الجانب الآخر جماعة من آل الشهابى (المدرسة الحسنية) على باب الأسباط . وقفها شاهين الحسنى الطواشى فى زمن الملك الناصر حسن المتوفى سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م . وانتقلت مع الزمن إلى جماعة من النصارى .

(المدرسة الطازية) فى طريق باب السلسلة من الشمال ، تجاه تربة بركة نخان . مؤسسها الأمير طاز من ممالك السلطان محمد المتوفى سنة ٧٦٣ هـ - ١٣٦٢ م . وكان يدرس فيها فطاحل العلماء المقدسيين . يسكنها الآن جماعة من آل هداية .

(المدرسة البارودية) بباب الناظر بالقرب من التثتمرية . وقفها الست الحاجة سفرى خاتون بنت شرف الدين أبى بكر بن محمود المعروف بالبارودى سنة ٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م .

(المدرسة الحنبلية) بباب الحديد . وقفها الأمير بيلمر نائب الشام سنة

٧٨١ هـ - ١٣٧٩ م . يسكنها اليوم جماعة من آل القطب .

(المدرسة اللؤلؤية) بخطر زبان بجوار حمام علاء الدين الأباصيري . وقفها الأمير لؤلؤ غازي عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن سنة ٧٨١ هـ - ١٣٧٩ م . ثم جاءت دولة المماليك الثانية ويسمونهم الأبراج أو الشراكسة . ومؤسسها هو الملك الظاهر برقوق . (١٣٨٢ م) . ومن المنشآت التي قامت على عهده : (خان السلطان) على طريق باب السلسلة . وكان يعرف بالوكالة . ١٣٨٦ م . (دار الست) في عقبة التكية بين خان الزيت وحارة الواد . بنها الست طنشق بنت عبد الله المظفرية ١٣٩٨ م . ولما توفيت دفنت فيها . ويسمىها المقدسيون في يومنا هذا (تربة خاصكي سلطان) . وقد عمر الملك الظاهر برقوق (قناة العروب) .

(المدرسة الجهاركسية) بجوار الزاوية اليونسية إلى الشمال . وقفها الأمير جهاركس الحليلي أمير آخور الملك الظاهر برقوق سنة ١٣٨٨ م .

(المدرسة الطولونية) فوق الرواق الشمالى من أروقة الحرم إلى الغرب من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصري محمد الطولوني في زمن الملك الظاهر برقوق . على يد مملوكه أقباغا سنة ٨٠٠ هـ - ١٣٩٧ م .

بعد وفاة الملك الظاهر برقوق تولى السلطنة الملوك الآتية أسماؤهم : - الملك الناصر فرج بن برقوق ١٣٩٨ م . والملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ١٤٠٥ م . والملك الناصر فرج بن برقوق للمرة الثانية ١٤٠٥ م . والإمام المستعين بالله الذى لقب بالملك العادل وجمع بين السلطتين الروحية والسياسية ١٤١٢ م . والشيخ محمودى ١٤١٢ م . وولده الملك المظفر أحمد ١٤٢١ م . والملك الظاهر ططر ١٤٢١ م . والملك الصالح محمد ١٤٢٢ م .

وقامت في القدس على عهد هؤلاء بعض المنشآت ، نذكر منها :

(المدرسة النصيبية) غربي المدرسة الأسعدية في شمال الحرم . وقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين . وقفها عندما كان في نيابة القدس ٨٠٩ هـ - ١٤٠٦ م . وأما مجير الدين فقد أسماها (المدرسة النصيبية) . أضيف جانب منها إلى الكلية المعروفة بروضة المعارف الوطنية .

(المدرسة الفرية) مقابل الطولونية من الشرق ، على مقربة من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين الطولوني وجعلها للملك الظاهر برقوق . واشتراها رجل من الروم اسمه محمد شاه ابن الفري الرومي ، فوقفها ، ونسبت إليه سنة (٨١٥ هـ) . (المدرسة الكاملية) بباب حطة بجوار المدرسة الكريمة من الشمال وقفها كامل من أهل طرابلس سنة ٨١٦ هـ - ١٤١٣ م .

وفي زمن الملك الأشرف برسبای الذي دام على سرير الملك ستة عشر عاماً (١٤٢٢ - ١٤٣٧ م) . أنشئت في القدس منشآت عديدة ، نذكر منها : (سبيل شعلان) من السبل الكائنة في ساحة الحرم بين صحن الصخرة وباب الناظر فإن هذا السبيل الذي أنشأه الملك المعظم عيسى (١٢١٦ م) . جده الملك الأشرف برسبای (١٤٢٩ م) .

(سبيل علاء الدين البصري) غربي الحرم ١٤٣٥ م . (المدرسة الباسطية) شمالي الحرم بالقرب من باب العم . أنشأها شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروي شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين . ومات قبل إتمام عمارتها . فعمرها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقي ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة سنة ٨٣٤ هـ - ١٤٣٠ م . يسكنها جماعة من آل جبار الله .

(المدرسة القادرية) بين باب حطة من الغرب ومثدنة إسرائيل من الشرق . أنشأتها مصر خاتون (وفي قول خديجة خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد ابن القادر في أيام السلطان الملك الأشرف برسبای سنة ٨٣٦ هـ - ١٤٣٢ م .

يخيم عليها اليوم الخراب وتحفظ فيها نعوش الأموات .

(المدرسة الحسينية) بباب الناظر غربى الحرم فوق رباط علاء الدين البصير .
وقتها الأمير حسن الكشكيلي ناظر الحرمين ونائب السلطنة فى القدس سنة
٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م . يقطنها الآن جماعة من آل البديرى .

(المدرسة العثمانية) بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباى . وقعتها امرأة من الروم
تسمى أصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثمانى سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٧ م .
يسكنها الآن جماعة من آل الفتيانى .

لم يجر فى القدس شئ يستحق الذكر على عهد الملك العزيز يوسف بن
برسباى (١٤٣٧ م) . سوى ما سمعناه عن (المدرسة الجوهريّة) التى وقعتها
الصفدى جواهر زمام الإدارة الشريفة سنة ٨٤٤ هـ - ١٤٤٠ م . أنها واقعة بباب
الحديد تجاه المدرسة الأرغونية . ويسكنها الآن جماعة من آل الخطيب .

وأما على عهد خلفه الملك الظاهر جقمق (١٤٣٨ م) . فقد وقعت حوادث
نذكر منها أن خاصكياً اسمه (أينال باى) أرسل إلى القدس للكشف على
الأديار ، فهدم ما استجد بدير صهيون ، وانتزع قبر داود من يد النصارى ،
وأخرج المستجد من دير السريان ، فصار زاوية . وهدم البناء المستجد ببيت
لحم . وقلع الدرايزين المستجد بالقمامة ، فأخذ إلى المسجد الأقصى . وقصارى
القول هدم كل ما استجد فى أديرة النصارى . وأصابهم عامئذ (١٤٥٢ م) .
كرب عظيم .

وتولى الملك ، بعد الظاهر جقمق ، ابنه الملك المنصور عثمان (١٤٥٣ م)
فالملك الأشرف إينال (١٤٥٣ م) . وعلى عهده عمر المسجد الأقصى (١٤٦٠ م)
وأنشئ السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة والمعروف فى يومنا هذا
بسبيل قايتباى .

ثم تولى الملك الملك المؤيد أحمد بن إينال (١٤٦٠ م) . فالملك الظاهر

خوشقدم (١٤٦٠ م) . وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) في ١٤٦٢ م . وشرع في إنشاء المدرسة الكائنة بجوار باب السلسلة والتي سميت بعدئذ (المدرسة الأشرفية) . ولم يحدث في القدس شيء ولا أنشئت منشآت تستحق الذكر على عهد الملك الظاهر بلباي (١٤٦٧ م) . لا ولا الملك الظاهر تمرغا . وإنما حدثت على عهد خلفه الملك الأشرف قايتباي (١٤٦٧ - ١٤٩٥ م) حوادث وأنشئت منشآت نذكر منها :

(المدرسة المزهرية) بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهريّة . وقفها الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري ٨٨٥ هـ - ١٤٨٠ م . يسكن في جانب منها . اليوم فريق من آل الشعباني .

(المدرسة الزمينية) غربي الحرم فوق الإيوان الذي بباب القطانين . أنشأها الخوذجكي الشمسي محمد بن الزمرد خان سنة ٨٨٦ هـ - ١٤٨١ م . يسكنها جماعة من آل العنفي .

(المدرسة الأشرفية) بالقرب من باب السلسلة وإلى الشمال منه . ومن أسمائها السلطانية . بناها في الأصل الأمير حسن الظاهري باسم الملك الظاهر خوشقدم (٨٧٥ هـ - ١٤٧٠ م) وكانت تدعى السلطانية . ولما توفي الملك الظاهر نسبت إلى الملك الأشرف قايتباي فسميت بالأشرفية . ولما زار قايتباي القدس أمر بهدمها فأعاد بناءها ٨٨٧ هـ - ١٤٨٢ م . لإنها من أجمل المدارس التي بنيت في ذلك العهد . و (السبيل) الكائن بين باب السلسلة وباب السكينة .

(وسبيل قايتباي) الكائن في داخل الحرم فوق البئر المقابلة للدرج الصخرة . ذلك السبيل الذي أنشأه إيتال ، وجدد عمارته قايتباي .

وأما الحوادث التي حدثت في القدس في عهد قايتباي فكثيرة منها :
أنه قام خلاف شديد بين ناظر الحرمين ونائب السلطان ، سرى إلى السكان .

واضطرب إثر ذلك جبل الأمن . فكثر السرقات ، وانتشر قطاع الطرق في جميع أنحاء البلاد .

وزاد الطين بلة احتباس المطر ، وغلاء الأسعار وتفشى الوباء ، وهنا الطامة الكبرى . إذ قيل إن عدد الذين كانوا يلاقون حتفهم من جراء الطاعون في اليوم الواحد زاد على المئة .

وقام خلاف شديد بين المسلمين واليهود حول دار واقعة في حارة اليهود بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين . فكان حكم قضاة المدينة ومشايخهم في صالح اليهود . ولما رفع المسلمون أمرهم إلى السلطان بمصر ، تقض هذا حكم القضاة . ثم عاد السلطان فانصاع لإلحاح اليهود . وأصدر أمره في صالحهم . فذاعت عندئذ في القدس شائعات تقول إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية . فثار المسلمون ، وهدموا الكنيس . وذلك قد جعل السلطان قابيتباي يغضب غضباً لا مزيد عليه . فأمر بإحضار زعماء المدينة إليه . وأرسلوا مصفدين بالأغلال . وهناك ضربوا وسجنوا . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن هدأت الفتنة .

وأنهم رجل من نصارى القدس بأنه سب الإمام عليا وزوجه فاطمة الزهراء . وعند ما ثبتت التهمة أعدم في دار النيابة . وتهدم بجانب من كنيسة القيامة بسبب كثرة الأمطار . . .

ورفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبيه في القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان في شكواهم . ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله .

ولم يكن خلفه (دقمان) بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً . فثار المقدسيون ضده . وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه .

ولم يكن الوضع الدولي يومئذ بأفضل من الوضع الداخلي ، فقد ساءت علاقات

الماليك مع الحكومات المجاورة ، ولا سيما مع الأتراك العثمانيين . وراح كلا الفريقين يحشد جنده على الحدود . وقبل أن تقع الحرب بينهما توفي قايتباي (١٤٩٥ م) . فاختلف الأمراء . وازداد الموقف سوءاً . فلا يكاد يعتلى العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه ؛ فيخلعوه ، أو يقيلوه .

وهكذا كان مصير الملك الناصر محمد بن قايتباي الملقب بأبي السعادة (١٤٩٥ م) . والملك الأشرف قنسو خنسمشة (١٤٩٥ م) . والملك الظاهر قنسو الثاني الملقب بأبي سعيد (١٤٩٨ م) . والملك الأشرف قنسو الثالث الملقب بجنبلات (١٤٩٩ م) . والملك العادل سيف الدين طومان باي (١٥٠٠ م) . والملك الأشرف قنسو الرابع الملقب بالغوري (١٥٠٠ م) .

وعلى عهده ازداد الموقف سوءاً بين الممالك والأتراك العثمانيين . إذ رحب هذا بكركود أخى السلطان سليم بن بايزيد ، وأمدّه بعشرين بارجة حربية لمقاتلة أخيه ، وافتتاح القسطنطينية . وهذا قد أغضب السلطان سليماً ، وجعله يفكر فى افتتاح مصر . فسار إليها ، وحارب الممالك فى (مرج دابق) على مقربة من حلب ؛ فتغلب عليهم ، وقتل سلطانهم قنصوه الغورى .

بايع الممالك ، إثر هذا الحادث ، الأمير طومان باي . وحاول هذا أن ينقذ البلاد من الأتراك . إلا أنه فشل . وتمكن السلطان سليم من احتلال هذه البلاد . ثم احتل مصر (١٥١٧ م) . وشنق طومان باي .

وهكذا انتهت دولة الممالك الشراكسة . وحلت مكانها دولة الأتراك العثمانيين .